قصة صالح ابن عبد القدوس مع راهب الصين

نشرها حضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي (تتمة)

ثم ان الراهب ارخى عينيه وبكى بكاء مرًّا شديدًا فقلتُ: يا راهب ما الذي يبكيك ؟ قال: أبكي على شيء ذكرتُهُ (ص ١٢) وحقّ عرفتُهُ ، قلتُ: ما هو امرك ؟ قال: قد ضيّعتُ يوماً لم أحسن فيه عملي. وذكرتُ قلّة الزاد وبُعدَ الطريق وعقبةً كؤودًا خطاها نزولًا وصعودًا. وما أدري أإلى جنةٍ ام الى نار وعذاب شديد. قلتُ: يا راهب كيف استحليت الغربة ؟ . قال: يا اخي ليس الغريب الذي مشى من بلد الى بلد . ولكنّ الغريب مؤمنٌ بين فسّاق وعالمٌ بين جهّال لا يعرفون حقه ولا يستفيدون منهُ . قلتُ: يا راهب لِمَ لا تنزل من هذه صومعتك وتخالطنا وتعاشرنا. فعندنا رهبان يعاشروننا ويخالطوننا ونخالطهم(١ . قال الراهب : هيهات هيهات يا فتى كم متعبّد بلسانه متقدم لربّه يقاد غدًا الى نار الجحيم . . . واعلم يا فتى ان الدنيا مَوردةٌ سكّانها للموت . كلّما تزوّجت الدنيا بزوجٍ ظأمَتهُ الموت وهي من الموت طالقة . فمثلُها مثل الحيّة لأنها لينة عند ملمسها والسمّ في انيابها قتّال . فحين يراها رجال دون العقول تهوى اليها عقولهم فلذلك ذاقت فيهم من سمّها . وخلطت لهم مرارة عيشها بعد صفائها . . . ثمّ قلتُ لهُ : بِمَ يُستعان على الدنيا في الزهد ؟ . قال: بكثرة ذكر الموت وتقصير الآمال مع دوام العمل . قلت: يا راهب متى ترحل الدنيا عن القلوب وتسكن الحكمة في الصدور؟ . فصاح الراهب صيحةً عظيمة وغشي عليه ساعةً واحدة حتى افاق. فقال: كيف قلتَ (ص ١٣) يا فتى أعدْ عليّ القول . قال: لا والله ما ترحل الدنيا عن قلبك وتسكن الحكمة في صدرك وانت مشغول في مكسب الدراهم الحرام والدنانير . وتستعين في مكسب الحلال وانت مع ذلك تحبُّ النظر الى هؤلاء — واشار بيده الى الخلائق . . .

قلت: يا راهب أريد اتوب واكون معك(٢ . فاجاب الراهب وقال : ما الذي

---

١) لعلّ في قوله هذا دليلًا على نصرانيّته

٢) هذا دليل ثانٍ على تنصّر صالح بن عبد القدّوس ورغبته في الزهد

اصنع بك معي. الآن مُعطي الارزاق يسوق رزقي اليّ في كل وقت ولا يكلفني الى احد. فمن يقدر على ذلك غيره؟ واعلم يا اخي ان العبد اذا زهد في الدنيا تعلق قلبه في ملكوت السماء. ونظر الى الدنيا بعين حقيرة. قلت: يا راهب متى يبلغ العبد درجة الكاملين؟ قال: يا فتى عن امر عظيم قد سألتَ وخبَر جسيم فحصتَ. اول درجة يصعد فيها اهل الصلاح ان يكفُّوا النظر من اتعاب الشهوات والصبر عند البلاء، (ص١٥) والشكر عند الرخاء، والحمد عند القضاء، وليس بعدها درجة

قلت: يا راهب؟ (ص١٤) مِمَّ كثرةُ ذنوبنا وخطايانا وقسوة قلوبنا؟ قال: الله الحاكم فيكم. وسترُه المسبل عليكم. وآماله لكم فتركتم الآخرة وقبلتم الحاضرة، وحلفتم بالأيمان الكاذبة. وحكمتم الاحكام الجائرة، فصُبَّ عليكم دينكم وضعف يقينكم. وقست قلوبكم، وكثرت ذنوبكم، وظهرت عيوبكم، ولم تفرغوا عن كُرُوبكم فأبعدتم آمالكم، واخفيتم اعمالكم، وكثر في الشر كُدودكم حتى فنيت آجالكم، واخذتم لدينكم الهوان والعيوب. وتركتم طلب العلوم، وظهر فيكم الظلوم، وتجرأتم على الآثام واخفتم اللائمة. واظهرتم الخيانة. وتعاملتم بالغدر، ونشأ فيكم المكر، وسارعتم في الشر، وزهدتم في اكتساب الخير، واخذتم نعمة الله بذلة الشكر، وطبع على قلوبكم الفخر، وقصرتم في العمل، وركبتم الزلل، حتى فني منكم الأجل، ومزجتم ألسنتكم في العسل، وقلوبكم ممتلئة بالدغل، وكسبتم الآثام، وسعيتم بالنمم... وتلثتم الحسنات، وعصيتم ربّ السموات، فلا ناهياً يزجر، ولا واعظاً بأمر، ولا خافياً حاضر. ولا ناصحاً ظاهر، وقلّ علمكم وكثر (ص١٦) جهلكم، وسَفِه حلمكم، وظهر فسقكم، وكثر غشكم، وتعزز جوركم، وطال سهوكم... واعتمتم في مكتسب الذنوب، وستر بعضكم على بعض العيوب، ولم تخافوا من العالِم بالغيوب، واستحليتم الحرام، وتنطختم بالآثام، وركبتم الذنوب والعصيان، وقطعتم صلاة الرحمان، وكثرت فيكم الخيانة. واخترتم الهوى. وحشوتم قلوبكم بالدغل. فكلامكم حلو وفعلكم مرّ. والسنتكم يابسة، وقلوبكم عابسة، تتحابون بالسنة وتتباغضون بالقلوب... ونسيتم الاعراض على رب العالمين والوقوف بين يديه. وتبعتم الشهوات. وتركتم الحسنات. وختم السيئات، وذهبتم في الخطايا. وجمعتم الاموال من الحرام. فصغاركم جهال. وكباركم

فجار . وهتكتم الحرم . وسعيتم بالاثم . ورغبتم في المظالم . واصبحتم من الخيرات زاهدين . وسعيتم في العباد ، وأكثرتم في الارض (ص ١٧) الفساد ، وعصيتم الجبار ، وأطعتم الاشرار ، وجلستم مجالس الفجار ، وتجنبتم مصاحبة الابرار ، ولبستم الاوزار ، وعملتم اعمال اهل النار ، فان استغنيتم بطرتم ، وان افتقرتم كفرتم ، وان حلفتم كذبتم ، وان ائتمنكم خنتم

قلت : يا راهب صف لي اخلاق اهل الدنيا قال : ستر بعضكم على بعض فاصلحتم بينكم . ولو أنبتم بالتوبة الى ربكم في هذه الدنيا . لكان انتقلتم عن المعاصي الى طاعة الله ربكم . وهو حليم لا يعجل على من عصاه . لكنكم كاذبتم الروساء . واستحلفتم الربا . فضللتم عن الهدى . وسفكتم الدماء . واخترتم الزنا . واطعتم النساء . فذهب عن وجوهكم الحيا . واشتغلتم عن الآخرة في هذه الدنيا . فخنتم في الكيل والميزان . وتعاونتم على الاثام والايتام . وجالستم السلاطين . وتفاضلتم على ظلم المساكين . ولم تخافوا العذاب ، ولم تخشوا العقاب ، ولم تفكروا في الحساب ، لا الى المظالم تنظرون . ولا من عالم تسمعون . ولا عن المكروب تفرجون . ولا في الخير ترغبون . ولا المعاصي تجتنبون . ولا من الخطيئة تنتقلون . ولا الى الله تتوبون . وبطلتم الصلاة . ومنعتم الزكاة . وبطر غنيكم ، وذل فقيركم . وبخلتم بما اعطاكم الله من نعمائه . وانتزعتم البركة من الارباح . وتجنيتم على الفقراء . وعصيتم رب السموات . ولم تشكروه على نعمائه . وهو رقيب لا يغفل عنكم ويؤخركم الى يوم تقفون بين يديه . ويفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم ما يريد . والله ما يريد ظلم عباده . يسألكم عن اعمالكم ويجازيكم بما فعلتم . ويجازي الاخيار بايصالهم الى النعيم المقيم . والاشرار بتخليدهم في الجحيم والعذاب الاليم ، فيا اموات ويا بني الاموات توبوا قبل ان تتفرق الجماعات ، تلحقوا باهل البركات ، فالذين بنوا المدن والحصون اين هم . اشتغلوا في هذه الدنيا عن الآخرة . ففنيت (ص ١٩) اعمارهم وانقطع رجاؤهم . ونزل بهم الموت وبدد شملهم . فخلوا الدور والقصور ، وسكنوا في ضيقة القبور ، واستقرت عليهم الجنادل والصخور ، وبقوا مرتهنين في قبورهم الى يوم الحكم والدين .

ثم ان الراهب رجع في كلامه على نفسه . واقبل يبكي ويقول لها : تكرهين لقاء ربك الكريم عند ساعة الرحمة . يا نفس يا نفس ما ارى لي في مشاحتك راحة . والى

امن من الموت تهربين . والى امن من الحساب تفرّين . (ثم قال) اللهمّ انتَ الذي سترت عيبي . واظهرتَ محاسني . فاسألك ان تحشرني مع المتقين . فانك اجود الجوّاد وارحم الراحمين . واكرم الاكرمين . وانت ربّ العالمين . (ثم قال) سبحانك انت الذي شاهدتهم . وانت المطّلع على أسرارهم . . .

ثم ان الراهب أخفى نفسه ولم أرَه بعد ذلك فصحتُ : يا راهب بالله عليك أرشدني (ص ٢٠) . قال : أبلغ النظر الى محلّة الاموات . واجعد الحالات في الاوقات . فقلت : يا راهب اعضدني بمن عليه اعتمد . قال عظّم ربّك وكرّر ذكره ؟ . وكن ممن يراك حيث نهاك . ولا تكتسب الحرام وتنفقه في الحلال . فانّ تركه قربان لله . واقنع بالقليل . لأن ما قلّ كفى ونفع . وهو خيرٌ ممّا كثر فأردى . يا فتى واذا ائتمنك احد بشيء فردّ الامانة الى اهلها . ولا تظلم . فان الله ما يظلم احدًا . وينتقم للمظلوم من الظالم . يا فتى احذر دعوة المظلوم . فانها لا تُحجب عن الله . واعلم ان الدنيا ولذاتها هي بمنزلة مالٍ رأيت في منامك . فلما استيقظت لم ترَ منه شيئاً . يا فتى لا تحسد من هو راغب في الدنيا . ولا تنازعه عليه . فكم ممّن طلب الدنيا ولم يدركها . ومن ادركها ما شبع منها . يا فتى استحي (ص ٢١) ممن هو اليك اقرب من حبل الوريد . واذكر الموت وافتكر في عقابه . وفي انقضاء اجلك . قبل ان يبعد منك املك . وانظر الى ضعف خلقك . لانك من نطفة قذرة . وسيرك الى تربة حقرة . يا فتى وَضِعْ نفسك وعظّم عقلك . واحزن على ما فات منك . ولا تمت في غير طاعة ربّك . يا فتى أكثر البكاء على ما قدّمتَ من ذنبك . واعلم ان الندامة تأتيك حيث يأتيك الموت . فلا أنت الى اهلك عائد ، ولا في عملك يزائد ، واعرف ما فيك من رحمة الله وربّك . يا فتى اذا رأيت جنازة محمولة . فاعلم انك بعدها محمولٌ . واعلم ان كل من خاف من الله خاف منهُ كلُّ شيء . . يا فتى اشتغل بعيوبك عن عيوب غيرك . ولا تعيّر احدًا بما هو فيه . فيبتليك الله به . واياك والعُجب فان الاعمال الصالحة ما تُقبَل اذا مازجها العجب . واياك والبغي فانه وخيم المصرع . يُذهب الحسنات ويكثر السيّئات . واياك (ص ٢٢) اللجاجة تكتسب الحيرة . يا فتى اصبر ولا تعجل فتندم . ولا تحسد فتكدّر عيشك . ولا تطلب طول العمر . فيوصلك الى الخرَف . ولا تشمت فيُشمتَ بك . وفكّر في الاخرة لتأمن الندامة وتجتنب الضحك فانه يورث البكاء . ولا تستخفّ بالمتقين فتبعد من الصالحين . ولا

تمسك المتظلمين . ولا تلاجج الاشرار . فان بُليتَ بهم فاغلبهم بالخير . ولا تجازهم بالشر . لان الغالبَ الشرَّ بالشر مغلوب . يا فتى الهرَب الهرب ممن يمدح الحسنات ولم يفعلها ويذمّ السيئات ولم يتركها . يا فتى وعليك بالتواضع والصدق يكسبانك رضا الله والمحبة بين الناس . واصلح في العالم نيّتك فتنال الراحة في آخرتك . واصفح يُصفَح عنك . وارحم تُرحَم . واغفر تُغفَر . واترك الشرّ وافعل الخير . لانك كما تكيل يكال لك ويتوفّر (ص٢٣) . يا فتى أكرِم نفسك ولا تشرب المسكر لان اوّله غرام ، وآخره هتيكة وندامة ، ولا تجالس من يحسّن لك الخطايا ويركّبك اياها . فانه ما يكسبك غير العداوة ويرميك في هوّة المرت . يا فتى أقصر في الكلام فتأمن السلامة في السكوت . ولتكن ممن يُرجى خيره ويؤمن شرّه . واعلم ان كل من احبّه الله ابتلاه ، ومن سخط عليه تركه وخلّاه ، يا فتى واذا تكون في شدّة او في مرض لا تكثر الشكاية فيعظُم ذنبك عند ربّك . غير انك تكون اذا اعتللت بامر تكثر الشكر لله . يا فتى اياك والنّمامة فانها تزرع الطغيان . وبعرق بين المحبين . ولا تستحسن لنفسك ما لا تستحسنه لغيرك . وارضَ للناس بما ترضيه لنفسك . فان الذي يلزم لنفسه هذه الاشياء يكون قد كمّل القضايا وهي صلاح في الدنيا والدين . والحمد لله ربّ العالمين

ثم ان الراهب نهض من ساعته الى مخدعه (ص٢٤) فناديته : يا راهب أدعُ لنا في صلواتك . فمن تلك الساعة سمعت صوته وهو يتضرّع في صلاته قائلًا : ادعوك يا ربّ برحمة حبيبك يسوع المسيح سيّدنا ومخلّصنا الذي به اهتدينا ، وبفضله استغنينا ، وبنعمته ارشدنا وبدعوته وفّقنا ، والايمان به قرّبنا . وأجبر ضعفنا ، ولا تلجئنا الى حيلنا وقوّتنا . وأقِل عثراتنا ، واستجب دعواتنا ، ومع جملة الذين أرضوك باعمالهم الصالحة احشرنا ومن عذاب النار وظلمة الجحيم نجّنا . ومن رحمتك الغزيرة لا تخيّبنا . وأنقِنا من الذنوب والخطايا اجعلنا . وعلى ما سلف منّا في غير طاعتك لا تحاسبنا . وعندما يأتي السيّد المسيح مخلّصنا . يجلس على كرسي عرشه . كما قد أخبر عنه رسلنا وانبأونا . وساعة الموقف بين يديه لا تخجلنا ولا تفضحنا . ومن جانب يمينه أقِمنا . ومع العازر المسكين واللصّ اليمين اجعل نصيبنا ومأوانا لانك سميع مجيب بملائكتك المقرّبين آمين . ورحمة الله على القارئ والكاتب والسامعين آمين .

كملت قصّة راهب الصين